ياعيل شمرياهو ـ يشورون* ودانيئيل مونترسكو**

وقائع عنف مُعلن؟ الاستطباق المتعصّب قومياً والنواة التوراتية في يافا ***

«الجمهور المتدين في يافا، أيضاً، يستحق الهيبة! بالقرب من مدرسة يافا الدينية (ييشيفاه) في شارع ييفت الرعوي تتبلور جماعة دينية وطنية عالية الجودة.... شرفة مع عريشة في كل شقة. تخفيض كبير مقارنة بأسعار السوق. قريبة من رَحبة البحر حيث التقاء الهدوء والسكينة».[1]

«هنا يسكن أشخاص يرغبون في مكان متنوع. أعتقد بأن يافا هي محمية طبيعية نادرة. في اللد، اليهود المتدينون والعرب يسكنون في أماكن منفصلة في كثير من الحالات. هنا، مدينة مختلطة حقاً. أنت تجلس مع أشخاص في البناية نفسها».

براك ليبوفيتش، عضو النواة، السوق، حي العجمي

ملخَّص

في العام ٢٠٠٧ انطلق مشروع الاستيطان المديني في يافا. على خلفية عملية «الانفصال» عن قطاع غزة التي اعتُبرت بمثابة أزمة عميقة في حركة الاستيطان الديني ـ الوطني، نشير إلى مواقع جديدة في النشاط السياسي، والاجتماعي والمكاني. استبدال نموذج الاستيطان في المناطق المحتلة بنموذج «الاستيطان في القلوب» ويرمي إلى توسيع مشروع «تعزيز الهوية اليهودية» ليشمل أيضاً المدن المختلطة في قلب البلاد. تستند هذه المقالة إلى سلسلة من المقابلات والمشاهدات جرت في خريف العام ٢٠٢٠، قبل نحو خمسة أشهر من اندلاع أحداث أيار ٢٠٢١. يعرض التحليل هنا السياق الاجتماعي والجغرافي الذي تنشط فيه «النواة التوراتية» في يافا ويُظهر أن اللاعبين النشطين يشكلون نمطاً اجتماعياً جديداً من «المُستطبِق المتعصب قومياً» الذي يختلف عن المستطبِق الليبرالي وعن المستوطن

* طالبة بوست دكتوراه (حاصلة على منحة ماري كيري)، قسم علم الاجتماع، جامعة كاليفورنيا في سان دييغو yshmaryahuyeshurun@ucsd.edu

** أستاذ مشارك، قسم علم الاجتماع وعلم الإنسان الاجتماعي، جامعة أوروبا الوسطى Monterescud@ceu.edu

خارج حدود الخط الأخضر، على حد سواء. يتبنى أعضاء النواة التوراتية من تصانيف التجديد الحضري الموقف النيو- ليبرالي الذي يرى في هوامش المدينة حيزاً من الفرص المنوعة في مجال التكافل الاجتماعي وتحقيق الذات، إلا أنهم يملؤونه بمضمون غير ليبرالي عن السيادة اليهودية الإقصائية. يجسد هذا النمط الاجتماعي الهجين سيرورات الخصخصة وتتجير الحيز، من جهة، ووجهات تعميق راديكالية التعصب القومي الرائجة في المجتمع اليهودي في إسرائيل، من جهة ثانية.

كلمات مفتاحية: نويات توراتية، مستوطنات، مدن مختلطة، استطباق.

من الاستيطان في المناطق إلى الاستيطان في القلوب

برز في موجة العنف التي اندلعت بين العرب واليهود في شهر أيار ٢٠٢١، دور «المدن المختلطة» كحلبة مركزية للأحداث. أحد الأحداث البارزة التي بشرت بما هو آت كان قد وقع في شهر نيسان وتمثل في اعتداء شابين عربيين من سكان يافا على الحاخام إلياهو مالي ومدير مدرسة «شيرات موشيه» الدينية اللذين كانا يريدان شراء عقار للمدرسة الآخذة في التوسع، وهو ما أثار سجالاً عاماً حول وجود النويات التوراتية في اللد، والرملة، ويافا.[٢]

تأسست هذه المدرسة الدينية في يافا في العام ٢٠٠٧ كجزء من الاستيطان الأيديولوجي الذي بادرت إليه نواة توراتية بهدف تعزيز الهوية والحضور اليهوديين في المدينة. في مقابلة معه، قال مدير المدرسة الدينية، موشيه شندوفيتش، إن «للاعتداء صلة بالأرض لكن لا يمكن فصله عن مشهدنا الديني».[٣] في المظاهرة التي نظمها سكان وناشطون غداة الحادثة، عبّروا عن احتجاجهم على الضائقة السكنية والإقصاء على خلفية سيرورات الاستطباق[٤] (gentrification) المصحوبة بإقصاء عرقيّ ـ قوميّ عقب دخول النواة التوراتية إلى المدينة[٥]. تحت شعارات «يافا ليست للبيع» و«عطيرت كوهَنيم جيران سيئون[٦]»، تصاعدت الحملة الاحتجاجية خلال الأسابيع التالية ورافقها عنف غير مسبوق، بين السكان أنفسهم ومن جانب الشرطة أيضاً. يظهر هذا الجمع بين السيرورات الاقتصادية والعرقية ـــ القومية بقوة أكبر في يافا، مقارنة بالمدن الثنائية القومية الأخرى، ويُنظر إلى الاستطباق الاقتصادي بكونه خطراً وجودياً (مونترسكو، ٢٠٢٠). مع مرور السنوات، أقيمت في يافا مجمعات دولية فاخرة، على شاكلة «جبعات أندروميدا» ومشروع الشقق الفاخرة على شاطئ البحر، واللذين يحدّان منطقة المساكن الشعبية التي تقيم فيها شرائح سكانية فقيرة، يهودية وعربية. يعزز الارتفاع الحاد في قيمة العقارات في المدينة، والمتواصل منذ ثلاثة عقود، من الضغط الاقتصادي ويفاقم من ضائقة السكن بين أبناء الطبقات الاقتصادية ـ الاجتماعية المتدنية، وخاصة السكان العرب (مونترسكو وفبيان، ٢٠٠٣). لكن بينما أُخضِعت ظاهرة استيطان النويات التوراتية في مدينتي عكا واللد المختلطتين للبحث والدراسة (شمرياهو- يشورون، ٢٠٢٠)، لم تُخضع هذه الظاهرة في مدينة يافا للبحث والدراسة حتى الآن. دراسة الحالة التالية، والتي جرت في كانون الأول ٢٠٢٠، أي قبل خمسة أشهر من اندلاع أحداث أيار ٢٠٢٠، تكتسب أهمية مضاعفة حيال التصعيد في أعمال العنف وازدياد الحاجة إلى سبر أغواره.

منذ تمركز النواة التوراتية في مدينة يافا في العام ٢٠٠٧، احتدمت التوترات بين المستوطنين والسكان. في العام ٢٠٠٩، فاز أعضاء النواة التوراتية بعطاءين لبيع أراضٍ في يافا وأقاموا عليها مباني سكنية مغلقة لعائلات تنتمي إلى تيار الصهيونية الدينية. بعد ذلك بسنتين، نظم أعضاء مدرسة «شيرات موشيه» الدينية «مسيرة» في جادة القدس في المدينة. تصاعدت الأمور عندما وقع مقابل مسجد «النزهة» صدام عنيف بين المشاركين في المسيرة وعدد من السكان المسلمين. ورداً على ذلك، عقد السكان اجتماعاً طارئاً قرروا خلاله إطلاق حملة احتجاج ضد «الاستفزازات والعنصرية».[٧]

رغم كون تقليد المسيرات الدينية في المدينة جزءاً من طبيعة الأعياد وأجوائها في يافا (في عيد الفطر الإسلامي وعيد الميلاد المسيحي)، فقد تمثل التجديد هنا في دخول لاعبين جدد إلى المدينة. في هذه المقالة، نشير إلى نمط جديد وحركة اجتماعية تنتقل من الأطراف إلى المركز، أو بمفهوم أدق: من المناطق الحدودية (المستوطنات) إلى هوامش المركز (اللد ويافا). بعد نحو عقد ونصف العقد على تأسيس النواة التوراتية، نتقصى أنماط النشاط والهوية في مسيرة الاستطباق الاستيطانيّ. نحن ندّعي بأنه في ضوء تاريخ الحركة الاستيطانية وأزمة الانفصال عن قطاع غزة في العام ٢٠٠٥، شرع مستوطنون شباب ومتعهدون عِرقِيون في البحث عن آفاق لـ «المعنى» في قنوات أخرى. ويعكس هذا المنحى نوعاً من الدمج النيو- ليبرالي بين قوى السوق والدافعية الدينية القومية لـ «تعزيز الهوية اليهودية».[٨]

في السجال النقدي العام، يُستثنى المستوطنون في المدن من السيرورات الاجتماعية ويُجرى فصل تام بين المستوطنون العقائديين وظاهرة الاستطباق. ففي فيلم «دليل الاستطباق» (٢٠٢١) على سبيل المثال، لم يجر توثيق النواة التوراتية في يافا، التي تُعتبر مشروعاً استعمارياً خارجياً ومفصولاً عن السياق البلدي المحلي. في هذه المقالة، نحن نقترح توسيع الرقعة والنظر إليها (النواة التوراتية) باعتبارها سيرورة غير منفصلة، بل جزء عضوي من الاقتصاد السياسي للإقصاء البلدي. بمعانٍ كثيرة ومن نواحٍ مختلفة، لا يختلف الاستطباق الراديكالي (من اليمين ومن اليسار على حد سواء) في الجوهر عن الاستطباق الليبرالي في ما يتعلق بتخيُّل المدينة غير المتجانسة كمساحة للتعبير عن الذات وتحقيق المشاريع الشخصية والمجتمعية. لا يسعى هذا التبصر التحليلي إلى تطبيع موقف المستوطنين، بل ينبع من سيرورات بنيوية في المجتمع الإسرائيلي تشير إلى اندماج متزايد من جانب السكان المتدينين ـ الوطنيين وطمس التصنيفات السياسية والمكانية في جانبيّ الخط الأخضر.[٩]

يسعى البحث الحالي إلى إجراء دراسة، هي الأولى من نوعها، حول استيطان النواة التوراتية في يافا ومواقف المستوطنين حيال المجموعات السكانية التي تعيش في المدينة وتنشط فيها (المجتمع العربي ـ الفلسطيني، اليهود الليبراليون من الطبقة الوسطى واليهود العريقون). ومن المهم أن نوضح أننا لا نبحث في الأحداث العنيفة بحد ذاتها وإنما في الخلفية والسياق الاجتماعي والتاريخي الذي سبق اندلاعها. أسئلة البحث هي: أولاً، كيف يصوغ أعضاء النواة التوراتية الأهداف المتوخاة من استيطانهم في المدينة؟ ثانياً، كيف تطور الاستيطان على مدار السنوات من حيث عدد المستوطنين، الموقع في الحيز المديني وحجم النشاط؟ ثالثاً، كيف يرى المستوطنون العلاقات التي نشأت في الحيز مع المجموعات السكانية المختلفة؟ هذا البحث أُجري بالطريقة النوعية بمنهج دراسة الحالة، ويعتمد على المقابلات المعمقة مع أعضاء النواة التوراتية وسكان من اليهود والعرب في المدينة، والمشاهَدات وتحليل الوثائق. والمقالة هنا هي الجزء الأول من سلسلة مقالات حول خلفية أحداث أيار ٢٠٢١ وتسلسلها، وهو يتقصى، للمرة الأولى، دور اللاعب المتعصب القومي الجديد في المدينة.

تتمثل مساهمة هذا البحث النظرية في توسيع المنظور البحثيّ حول الاستطباق، بوصفه سيرورة لها أبعاد عرقية ـ قومية واضحة وليس أبعاداً طبقية فحسب.

ونحن نرى إنه بالإمكان التعرف على نموذج اجتماعي جديد من المستوطن المدينيّ الذي نعرّفه بأنه المُستَطبِق المتعصب قومياً. يبلور هذا النموذج الاجتماعي «هابتوس» مميَّزًا في حقل اجتماعي جديد. سئم المستوطن المدينيّ المستوطنة البرجوازية الغنية من جهة (مثل إفرات في غوش عتصيون) لكنها، من جهة أخرى، لا تجد لها مكاناً ضمن «الاستيطان الشبابي» في البؤر الاستيطانية على التلال في الأطراف البعيدة (مثل «حفات يئير» في تلال جنوب الخليل)[١٠]. على غرار المستطبق العلماني، كذلك المستطبِق المتعصب قومياً يريد التغاير والتنوع الثقافي ويرتدع من العيش مع من يماثله. لكنه، في الوقت نفسه، يعتبر نفسه مبعوثاً لحركة سياسية ويسعى إلى توسيع مشروع الاستيطان العقائدي (الأيديولوجي) وتطبيعه في قلب الأحياء المختلطة في وسط البلاد. يخلق مشروع التمايز المديني لغة من القيم إلى جانب إنشاء حدود واضحة بين العرب واليهود وانطلاقاً من الاحتجاج ضد تكلس الشرايين في الحركة الاستيطانية. واستمراراً للتوجه الرامي إلى طمس الخط الأخضر، تشكل المدينة المختلطة مساحة من الفرص لتحقيق الأيديولوجيا وتحديد مهمة قومية جديدة. وبذلك، فهي تطرح في الوقت نفسه بديلاً وتقليداً لمشروع استيطاني تاريخي. يقتبس أعضاء النواة التوراتية من تصانيف الاستطباق ويتبنّون المفهوم النيو ـ ليبرالي الذي يعتبر أطراف المدينة حيزاً من الفرص في مجال المشاركة الاجتماعية، التنوع الثقافي وتحقيق الذات، لكنهم يملؤونه بمحتوى غير ليبرالي عن التفوق اليهودي. يصوغ المستوطن المديني الجديد رواية تكرّسه كطرف نيو ليبرالي داعم للتحضر يسعى إلى تحقيق «قيم» (يهودية) في سياق «يشكل تحدياً». هذا النتاج الاجتماعي الهجين يجسد سيرورات اقتصادية وثقافية سائدة في المجتمع الإسرائيلي اليهودي وكذلك سيرورات تطرف قومي راديكالي، في الوقت نفسه.

تنقسم هذه المقالة إلى أربعة أجزاء مركزية. نستهلها بعرض نظري لظاهرة الاستطباق واللاعبين المختلفين الذين يلعبون دوراً في هذه السيرورة. ثم نعرض لتطور سيرورات الاستطباق في يافا على مر السنوات. ثم نعرض، بعد ذلك، التطور التاريخي للنويات التوراتية في إسرائيل. وبعد عرض طريقة البحث ومنهجيته، ننتقل إلى عرض النتائج التي تشمل أيضاً شخصية المستوطنين في يافا، أهدافهم وانتشارهم الجغرافي. نعرض توجهاتهم إزاء سكان المدينة على اختلاف انتماءاتهم والعلاقات التي تنشأ معهم. وفي

النهاية، نبحث في تأثيرات المدينة المختلطة، النيو ـ ليبرالية، على المستطبِق المتعصب قومياً في أحداث أيار ٢٠٢١.

خلفية نظرية: استطباق عِرقيّ

يُعرَّف الاستطباق في الأدبيات الحضرية بأنه سيرورة ذات وجهين. فمن جهة أولى، هو سيرورة تنتقل خلالها مجموعات سكانية من الطبقتين الوسطى والعليا إلى السكن في منطقة بلدية مهمَلة فتدفع بالاستثمار في تجديدها من خلال ترميم المباني، وفتح مصالح تجارية، وتطوير البنى التحتية وتحسين صورتها الإيجابية. من جهة ثانية، يؤدي التطوير المديني إلى إغلاق مصالح تجارية صغيرة، وارتفاع الأسعار بصورة حادة وازدياد قيمة العقارات في المنطقة الأمر الذي يضطر السكان المحليين من الطبقة الفقيرة إلى مغادرة مكان سكناهم الذي لم يعد سهل المنال.[١١] من الناحية التاريخية، يحصل الاستطباق في المناطق المدينية التي عانت من تدهور وتردي البنى التحتية جراء قلة الاستثمار فيها (disinvestment) من قبل المؤسسة الرسمية ما أدى إلى هبوط قيمة العقارات في هذه المناطق. ومن النتائج الجانبية المترتبة عن الإهمال التخطيطي، تنشأ فجوة بين إمكانية جني الأرباح من الأرض والقدرة على تحقيق هذه الأرباح فعلياً. وتشكل فجوة بدل الإيجار (Rent Gap) مؤشراً على قدرة كامنة في مجال الريادة والتعهدات ويجتذب مستثمرين يدفعون بعملية التجديد الحضري بدعمٍ من سلطات التخطيط البلدية.

وبينما شدد باحثون ماركسيون، مثل نيل سميث، على جانب الاقتصاد السياسي في «العَرض»، شدد باحثون فيبريون (من مدرسة ماكس فيبر)، مثل ديفيد لي (Ley)، على «جانب الطلب».[١٢] وليس الاستطباق في عرفهم سيرورة اقتصادية وإنما يشكل، أيضاً، تطوراً ثقافياً يعكس التفضيلات الاستهلاكية، والأيديولوجية والبحث عن نمط حياة بديل يمكن أن تتيحه العودة إلى المدينة. يوفر الاقتصاد الرمزي للاستطباق جماليات حيزية حضرية تسعى خلف قيم ثقافية مثل التغاير الاجتماعي والتمايز الهوياتي (Zukin, ٢٠١٢).[١٣] وهو يجسد الاستئثار الحيزي الذي لا تحركه المصالح الاقتصادية وحدها فقط، بل أيضاً نمط حياة الطبقة الوسطى وتمثيلاتها الرمزية. وهكذا يُنتج الاستطباق حركة في مجال الطاقة الحضري تجمع بين المواقف والوكلاء الذين يتصارعون على رأس المال الاقتصادي، الثقافي والرمزي.[١٤]

قاد الاهتمام البحثيّ بجوانب الاستطباق إلى تحديد لاعبين مختلفين، بعضهم مدفوع بأجندات سياسية ـ ثقافية. يوفر الاستطباق مجالاً لنشاط مجموعة من اللاعبين الاجتماعيين: السياح في القرى والمنتجعات السياحية الذين يبحثون عن جودة حياة وأجندات بيئية (touristification)، الطلاب (studentification) والفنانون الذين يرغبون في العيش في فضاء مثير ومتنوع، إلى جانب نشطاء سياسيين يشكل حيز الهوامش فرصة لهم لتحقيق قيم ثقافية.[١٥] ثمة للدافعية الثقافية والأيديولوجية التي حفزت الاستطباق على الاستيطان في الحيز معنى حاسم بالنسبة لطبيعة التفاعل الحاصل مع السكان المحليين. في العديد من الحالات، يدرك المستطبِقون الليبراليون أثرهم الاجتماعي ـ الاقتصادي على المنطقة الفقيرة ويحاولون مواجهة ذلك الأثر بواسطة أنشطة اجتماعية وسياسية، وهو ما ينسجم مع تسميتهم بـ «المستطبِقون الضميريون» (mindful gentrifiers).[١٦] أما «المستطبِق الناشط» (activist gentrifier)[١٧] فيميل إلى الانخراط في المجتمع المحلي، المبادرة إلى المشاركة في النشاطات السياسية التي تشمل الاحتجاجات والنضالات في مختلف المجالات، بدءاً بالسكن والأمن وانتهاء بالحقوق البلدية والاحتجاجات السياسية الأوسع. هذا الوكيل، الذي نطلق عليه اسم «المستطبِق الراديكالي» يجد نفسه جزءاً من عملية الاستطباق التي هو معارض لها أصلاً. يوفر هذا اللقاء مع الآخر البلدي (السود في الولايات المتحدة والعرب في إسرائيل) للمستطبِق الانعكاسيّ فرصة التأمل الذاتي الداخلي وبلورة تمايزه الهوياتي.

بينما تتوقف الأدبيات بتوسع عند المستطبقين الليبراليين الذين يسعون إلى تعزيز التعايش مع فئات عرقية ـ قومية أخرى في المكان نفسه، فهي تتجاهل وكلاء الاستطباق السياسيين غير الليبراليين الذين ينشطون بدافع التعصب القومي.[١٨] يجري استثناء هؤلاء الوكلاء من السيرورات الاجتماعية ـ الحضرية مما يُحدث فصلاً تاماً ومطلقاً بين المستوطنين الأيديولوجيين وظاهرة الاستطباق. وفي رأينا أن سيرورات التطوير البلدية النيو ليبرالية، والاستطباق ضمنها، ليست حيادية من الناحية السياسية والعرقية ـ القومية، وإنما هي تشكل أداة لإقصاء الأقليات عن الحيز. وفقاً للمنظور «الجنوبي ـ الشرقي»، فإن ما يحرك الاستطباق والإقصاء (displaceability) في المدن المختلطة هو قوى ليست نيو ليبرالية فقط وإنما لها علاقة أيضاً بهوية قومية محددة، بالاستعمار، بالسيطرة الأمنية وبتدين الحيز.[١٩] تحت ستار عملية اقتصادية حيادية قوامها التجديد الحضري الذي يعود بالفائدة

النويات التوراتية هي اسم شامل للاستيطان الجماهيري الذي تقوم به عائلات من تيار الصهيونية الدينية مؤطَّرة ضمن جمعيات أو منظمات استيطانية في خدمة أهداف أيديولوجية. بدأ تأسيس النويات التوراتية مع إنشاء النواة الأولى في كريات شمونة في العام ١٩٦٨. حتى العام ٢٠٢٢، أصبح عدد النويات التوراتية أكثر من ٨٠ منتشرة في كل أنحاء البلاد تقريباً وفي بعض المدن هنالك أكثر من نواة توراتية واحدة.

على الجميع، يعزز الاستطباق السيطرة العرقية القومية في المدينة المختلطة. هذه العملية تجري، ضمن أطراف أخرى، بواسطة جمعيات استيطانية تعمل كوكلاء للدولة، ولذا فهي توصف بأنها عملية «استطباق عرقي مؤسساتي».[٢٠]

يافا بين الاستطباق الاقتصادي والعرقية القومية

يسكن في يافا نحو ٤٠,٠٠٠ من اليهود و٢٠,٠٠٠ من العرب. في النصف الأول من القرن العشرين، كانت يافا تمثل حاضرة فلسطينية كوسموبوليتية وبوابة دخل عبرها المستوطنون اليهود إلى البلاد. إبان حرب العام ١٩٤٨، جرت تصفية النخب الفكرية، الثقافية، والقيادات البلدية والطبقة الوسطى الفلسطينية. أما السكان العرب الذين بقوا في المدينة فقد جُمّعوا فيما سُمي آنذاك «غيتو العجمي». في العام ١٩٥٠، أُلحقت يافا بمدينة تل أبيب وتحول المجتمع العربي فيها إلى أقلية قومية في المدينة اليهودية. من بين السكان العرب الـ ٧٠ ألفاً الذين كانوا يسكنون في يافا قبل الحرب، لم يبق بعد اللجوء سوى ٣,٩٠٠ فقط. في المقابل، جرى في تلك السنوات استيعاب عشرات آلاف المهاجرين اليهود الذي كان مستواهم الاقتصادي ـ الاجتماعي متدنياً والذين قدِموا من بلغاريا، ورومانيا وشمال أفريقيا. ثم انضم إلى هؤلاء لاحقاً فلسطينيون جاءوا بحثاً عن فرص العمل وعملاء تم نقلهم من «المناطق» الفلسطينية لأسباب أمنية. خلقت هذه السيرورات الديمغرافية مشكلات اجتماعية في المدينة، شملت ارتفاعاً حاداً في معدلات البطالة، ومعدلات مرتفعة من الإجرام وتعاطي المخدرات، فتكت بالنسيج الاجتماعي في المدينة.

الصراع الديمغرافي والسيطرة على الأرض في يافا وثيقا الصلة بسيرورات التطوير والتخطيط الاقتصاديين. خلق تدهور المدينة، والإهمال المنهجي وقلة الاستثمار (disinvestment) من جانب السلطات الرسمية في المدينة، منذ الخمسينيات، إلى جانب الإمكانية السياحية والعقارية الكامنة فيها، ظروفاً مواتية لسيرورات الاستطباق.[٢١] عجّل تشكيل «طاقم تخطيط يافا» في العام ١٩٨٥ ووضع الأراضي على سكة التنافس التجاري قدوم أعداد متزايدة من اليهود الأثرياء إلى يافا. جرى الدفع بمشاريع مختلفة والترويج لها، من بينها مشروع ترميم المدينة القديمة، ومشروع ترميم الأحياء، ومشروع ميناء يافا، ومشروع الصَّدفة، ومشروع «جبعات أندروميدا» ومشروع منحدر يافا.[٢٢] هذه كلها كانت مصحوبة بإبعاد السكان العرب القدامى في المدينة على نحو عزّز تهويدها بصورة فعلية. اندلعت في العام ١٩٩٦ «انتفاضة المسكن» التي «اقتحم» في إطارها بعض السكان عدداً من البيوت التي أغلقتها شركة «عميدار». وفي أعقاب ذلك، دُشن «مشروع ابنِ بيتك» الذي مني بالفشل لأسباب مختلفة. ولا تزال الضائقة السكنية والعلاقة بين السكن الشعبي وقوى السوق الخاص تشكلان بؤرة مركزية في الصراع الاجتماعي حول «الحق في المدينة». وكما سنرى لاحقاً، فقد شكل دخول البؤرة التوراتية إلى يافا استمراراً مباشراً لهذه السيرورات التي تجعل من يافا هامشاً للمركز المديني.

نويّات توراتية: المستوطنون الجُدُد

النويات التوراتية هي اسم شامل للاستيطان الجماهيري الذي تقوم به عائلات من تيار الصهيونية الدينية مؤطَّرة ضمن جمعيات أو منظمات استيطانية في خدمة أهداف أيديولوجية. بدأ تأسيس النويات التوراتية مع إنشاء النواة الأولى في كريات شمونة في العام ١٩٦٨. حتى العام ٢٠٢٢، أصبح عدد النويات التوراتية أكثر من ٨٠ منتشرة في كل أنحاء البلاد تقريباً وفي بعض المدن هنالك أكثر من نواة توراتية واحدة. تتلقى هذه النويات الدعم من الوزارات الحكومية، والسلطات المحلية، والتنظيمات

الجامعة والصناديق المختلفة إضافة إلى التبرعات الفردية.[٢٣] وتشير دراسة حديثة إلى أن ميزانية هذه النويات السنوية كبيرة جداً وتبلغ مئات ملايين الشواكل.[٢٤]

تنقسم النويات التوراتية إلى ثلاثة نماذج، طبقاً لطبيعة أهدافها وموقعها الجغرافي. النموذج الأول هو النويات التوراتية الناشطة في المدن الطرفية أو في الأحياء ذات التدريج الاقتصادي ـ الاجتماعي المتدني، بدوافع اجتماعية أساساً (كما في يروحام ونتيفوت، مثلاً). النموذج الثاني هو النويات التوراتية التي تنشط في المدن المختلطة بدوافع قومية أساساً، إلى جانب الدوافع الاجتماعية والدينية. وأخيراً، النموذج الثالث، هو النويات التوراتية التي تنشط في الأحياء الغنية في وسط البلاد وتهتم بنشر اليهودية، بشكل أساسي (كما في رمات هشارون، على سبيل المثال).

اكتسبت ظاهرة النويات التوراتية زخماً كبيراً على مر السنوات بسبب عدد من الوجهات والمناحي التاريخية. سعت عائلات من تيار الصهيونية الدينية خلال السبعينات، مع تصاعد السجال الاجتماعي حول وضع المناطق الطرفية والشروخ الطائفية، إلى الاندماج في المناطق الطرفية بغية تعزيز المدن فيها وسكانها. على عكس النزعة الانفصالية لدى الصهيونية الدينية في المستوطنات، حيال تنامي «الحريديم القوميين» واتساع أوساطهم (تلاميذ الحاخام تسفي يهودا كوك المعروفين أيضاً باسم «أوساط مركز الراڤ» ـ «الييشيفاه المركزية العالمية»)، كانت النويات التوراتية تمثل التطلع نحو الاختلاط في مجتمع الأغلبية العلماني.[٢٥]

اعتُبرت هذه الظاهرة تجسيداً لتحول حصل في تيار الصهيونية الدينية ـ من التركيز على مهمة الاستيطان في المناطق (الفلسطينية) إلى المهمة الاجتماعية داخل حدود الخط الأخضر ـ لكنه غير منفصل عن مشروع الأراضي الإقليمي. تعاظم «الاستيطان في القلوب» بعد كل موجة من الأحداث السياسية: ابتداء من الانسحاب من سيناء، مروراً باتفاقيات أوسلو وانتهاء بالانفصال عن قطاع غزة وشمال السامرة (الضفة الغربية). فقد قادت هذه الأحداث الصهيونية الدينية إلى الشعور بخيبة أمل وإحباط من المجتمع الإسرائيلي والرغبة في تجنيده سياسياً في مهمة الاستيطان في المستوطنات. وفي أعقاب المقالة التي نشرها الحاخام يوئيل بن نون بعنوان «لم نفلح في الاستيطان في القلوب» (١٩٩٢)، كتب رئيس المدرسة الدينية (ييشيفاه) «هار همور»، الحاخام تاو: «استوطنا في يهودا والسامرة، أنجزنا أموراً جميلة وكبيرة لكننا لم نعمق الأساس، لم نهيئ القلوب ولم نؤهل شعب إسرائيل للإيمان التام ولفهم الأساس الداخلي لعلاقتنا بالبلاد ووضعنا كشعب».

إضافة إلى هذه الأهداف، رأت الصهيونية الدينية أن المهمة الدينية تشكل حافزاً لإنشاء النويات التوراتية. قاد الشرخ بين المتدينين والعلمانيين - الذي بلغ أوجه في التسعينيات عقب اغتيال إسحق رابين، واعتبار المجتمع الإسرائيلي منقطعاً عن اليهودية - مجموعات من شبان الصهيونية الدينية إلى الاستيطان في مدن وسط البلاد. عزز الوضع الديمغرافي في المدن المختلطة، التي شهدت هجرة سلبية من جانب السكان اليهود من دافعية تكريس الحضور والطابع اليهوديين فيها. أُقيمت النواة التوراتية الأولى في المدن المختلطة في مدينة اللد (١٩٩٤) ثم في مدينة عكا (١٩٩٧)، ثم في الرملة (٢٠٠٣)، ثم في نتسيرت عيليت/نوف هجليل (٢٠٠٦)، ثم في يافا (٢٠٠٧)، ثم في حيفا (٢٠٠٩) ومعلوت ـ ترشيحا (٢٠١٤).

تعاظم النواة التوراتية وصعود الاستطباق المتعصب قومياً

تأسست النواة التوراتية في يافا في العام ٢٠٠٧ بمبادرة من ثماني عائلات تنتمي للصهيونية الدينية وبدعم من منظمة «رأس يهودي». أقيمت في السنة نفسها أيضاً مدرسة «هَهِسدير» الدينية (ييشيفاه) والمدرسة الدينية العليا للشبان «بعامي يافو ـ شيرات موشيه» في كنيس «أو يسرائيل» في حي «جبعات علياه» (الجبلية). وعلى الرغم من أن النواة توسعت خلال السنوات الأولى على إقامتها وأصبحت تعدّ خمسين عائلة في العام ٢٠١١، فإن ارتفاع أسعار العقارات قاد إلى مغادرة عائلات النواة بصورة تدريجية. وهكذا، أصبحت المجموعة تشمل نحو ٣٠ عائلة من طلاب المدارس الدينية و١٥ عائلة أخرى من النواة التوراتية التي تعيل نفسها بصورة مستقلة.

يقيم المستوطنون في عدد من المراكز في المدينة. تسكن عائلات النواة التوراتية ذات الأقدمية في حيَّي «قلب يافا» («دكار يافا أ») والعجمي، بعضها في شقق سكنية بملكيتها بينما تسكن غالبية العائلات، الأكثر شباباً، في شقق مستأجرة في حيَّي «جفعات هعلياه» و«يافا ج». في العام ٢٠١٣ توسع استيطان النواة التوراتية نحو الشرق إلى حي «نفيه عوفر» (تل كبير). وأصبحت المدرسة الدينية (الييشيفاه) تسيطر على عدد من المباني في مواقع مركزية في حي العجمي (في شارع طولوز وشارع كيدم) وتدير عدداً متزايداً من الكُنُس التي كانت تخدم في الماضي

اليهود القدامى من سكان يافا.

إلى جانب الانتشار المتفرق، نشأت أيضاً تجمعات سكنية خاصة بأعضاء النواة التوراتية والمدرسة الدينية في يافا. في العام ٢٠٠٩، انتظمت ثماني عائلات من النواة التوراتية في مجموعة خاصة (انظر الصورتين ١- ٢) واشترت قسيمة في شارع «جير تسيدك» رقم ٦ في حي «دكار»، كانت «مديرية أراضي إسرائيل قد عرضتها للبيع؛[٢٦] (قسيمة بإدارة شركة عميدار). وقد شملت عملية البناء إخلاء «مقتحمين» من قسيمة مجاورة من أجل إنشاء بناية سكنية جديدة مخصصة لعائلات من الصهيونية الدينية فقط. تحت عنوان «مستوطنات عليكِ يا يافا»، كُتب «هنا، في قلب حي العجمي المختلط، يقف يهود متدينون وطنيون لإنشاء مشروع سكني، سيتم بيع الشقق السكنية فيه، بكل صراحة ووضوح، لليهود المتدينين فقط». صرح مدير عام منظمة «بإيموناه» ورئيس جمعية «رأس يهودي»، يسرائيل زعيرا، قائلاً: «نحن نفعل هذا أفضل بكثير، لأننا ذوو تجربة طويلة في الاستيطان، وفي الاستيطان في القلوب».[٢٧]

نشرت مديرية أراضي إسرائيل في السنة نفسها مناقصة[٢٨] لشراء قسيمتيّ أرض بين شارع «بيت بيلط» وشارع «هإتروغ» في حي العجمي (مشروع «هإتروغ»). شكلت شركة «بإيموناه ـ سكن للجمهور المتدين الوطني» مجموعة شراء للجمهور المتدين الوطني وفازت بالمناقصة. ثم أقامت بعد ذلك حوزة سكنية مكونة من ٢٠ وحدة سكنية في ثلاث بنايات سوّقت لعائلات متدينة (انظر الصورة رقم ٣). من الناحية التخطيطية والمعمارية، لا تختلف هذه المباني عن المباني الأخرى ذات «النمط اليافاوي» التي بُنيت مؤخراً كجزء من عملية التجديد الحضري. وقد أثار هذا المشروع معارضة قوية لدى مجموعة من السكان، اليهود والعرب، ولدى منظمات مختلفة في يافا قدمت التماساً قضائياً لإلغاء اتفاقية استئجار الأرض بحجة التمييز. وفي العام ٢٠١٠ رفضت المحكمة الالتماس بادعاء أنه قد «قُضي الأمر»، لأن المشروع كان قد بلغ مراحل متقدمة.[٢٩] وفي العام ٢٠٢٠ أُسكنت عائلات النواة في بنايات المشروع الذي أدى، في نهاية المطاف، إلى إخلاء سوق الخضروات الوحيد في يافا، الذي كان قائماً هناك منذ ستينات القرن الماضي وشكل مركزاً تجارياً مميزاً فيها. منذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا، لم يعد هنالك سوق للخضار في يافا.

بالإضافة إلى ذلك، أقيمت مدرسة داخلية لتلاميذ المدرسة الدينية (ييشيفاه) «شيرات موشيه» في شارع «تسوينا تجر» رقم ١٥ في منطقة مرموقة في شمال حي العجمي. هذه البناية، التي تعرّفها سلطة التطوير بأنها أملاك غائبين، اشترتها في العام ٢٠١٢ مواطنة أرجنتينية وتبرعت بها للمدرسة الدينية في العام ٢٠١٦. وقد أثارت أعمال ترميم هذه البناية التاريخية، التي كانت معدّة للحفظ المشدد أصلاً، معارضة واسعة بين السكان والنشطاء ضد ما وصفوه بـ «غزو جهات معادية».[٣٠] وفي النهاية، أقيمت في يافا «قرية الطلاب» التابعة لحركة خريجي «بني عكيفا» في العام ٢٠١٨. أقيم هذا المشروع في حي يافا د وكان يضم، حتى العام ٢٠٢٠، نحو ٣٠ طالباً يدمجون بين الدراسة والنشاط الجماهيري لقاء منحة للسكن.

الصورة رقم ١: النشر عن تشكيل مجموعة شراء تابعة للنواة التوراتية في يافا[٣١]

الصورة رقم ٢: النشر عن إقامة مجموعة شراء تحضيراً للمناقصة.

الصورة رقم ٣: مشروع «هإتروغ»

منهجية البحث

أُجري البحث بالمنهج النوعي البنّاء، بطريقة بحث دراسة الحالة المستندة إلى تحليل مقابلات معمقة مع لاعبين مختلفين في المدينة وتحليل وثائق.[٣٢] وقد شمل البحث ٢٧ مقابلة معمقة شبه منظمة مع ١٠ من أعضاء النواة التوراتية و- ١٧ من السكان العرب واليهود. استراتيجية اختيار العينة اعتمدت «كرة الثلج» بغية تحديد النشطاء المركزيين في كل مجموعة. أُجريت المقابلات وجهاً لوجه في مدينة يافا، في الموقع الذي اختاره الأشخاص أنفسهم (في منزل الشخص، في مقهى أو في مكاتب النواة التوراتية والمدرسة الدينية التوراتية). استمرت كل واحدة من المقابلات بين ٤٥ و٩٠ دقيقة بينما استمرت مقابلة واحدة (فقط) نحو ثلاث ساعات. سُجلت المقابلات صوتياً بموافقة الأشخاص أنفسهم، ثم جرى تفريغ نصوص المقابلات فشكلت قاعدة بيانات الدراسة. بقيت أسماء الأشخاص الذين أجريت معهم المقابلات سرية. أُجريت المقابلات مع أعضاء النواة التوراتية في كانون الأول ٢٠٢٠، باستثناء مقابلة واحدة فقط (أجريت بواسطة محادثة فيديو)، فقد أجريت جميعها في مدينة يافا. أجريت المقابلات مع السكان، من خارج النواة التوراتية، خلال شهريّ تشرين الأول ـ كانون الأول ٢٠٢١.

كانت المقابلات شبه منظمة وشملت نحو ٣٠ سؤالاً تمحورت حول تطور المدينة من النواحي الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية، عملية استيطان النواة التوراتية في المدينة، وأهداف الاستيطان، والعلاقات الداخلية في داخل المجموعات السكانية المختلفة والمجموعات مع بعضها البعض، والتحديات التي يفرضها الاستيطان وغيرها من المواضيع.

بالإضافة إلى المقابلات، ارتكزت نتائج الدراسة على تحليل شامل لوثائق سياساتية حكومية (مَحاضِر لجان الكنيست، قوانين، برامج عمل الوزارات الحكومية المختلفة، استجوابات وقرارات حكم قضائية، وثائق الميزانية، قرارات حكومية، أصوات تدعو إلى دعم النويات الاستيطانية، مناقصات وغيرها)، وثائق سياساتية بلدية (وثائق التخطيط، تقارير سنوية، مناقصات، خرائط هيكلية وغيرها)، وثائق النواة التوراتية وجمعيات تنشط تحت كنفها (ميزانية، رؤية، خطة سنوية) ووسائل إعلام (تقارير من الصحافة، كتابات فردية في شبكات التواصل الاجتماعي وفي أعمدة الرأي في وسائل الإعلام). جُمعت جميع هذه الوثائق بصورة مستقلة من شبكة الإنترنت ومن الأشخاص المختلفين الذين أجريت معهم المقابلات.

نتائج:

١. وُجهات في خطاب المستوطنين ـ بين التعصب القومي، والدين والتنويع

بيّنت المقابلات والمشاهَدات مع أعضاء النواة التوراتية أنهم يعتبرون أنفسهم مبادرين يدفعون قُدُماً مشروعاً ذا ثلاثة رؤوس - قومي، وديني واجتماعي/ اقتصادي – متداخلة ومرتبطة ببعضها البعض. يكشف خطاب نشطاء النواة التوراتية عن استطباق أيديولوجي يدمج بين الخطاب النيو- ليبرالي حول السوق الحرة والبحث عن المعنى الفردي، من جهة، والقيم الجماعية التي تخدم المصلحة القومية والعرقية.

المشروع القومي: «بإمكان العرب العيش هنا، لكنّ يافا ليست لهم»

ينهل الاستيطان في المدن المختلطة أصوله ومصادره الأيديولوجية من حركة «غوش إيمونيم» ومن المشروع الاستيطاني. في خطاب المستوطنين، يمكن تبيُّن تقليد للخطاب الأيديولوجي وممارسات السيطرة الإقليمية على الأرض كما ظهرت خلال فترة ازدهار المستوطنات في السنوات الأولى على إنشائها. في الوقت نفسه، ينتقد هذا الخطاب استمرار مشروع الاستيطان الذي يصفه بتعابير من قبيل الاستنفاد، والتبرجز، والانقطاع عن «شعب إسرائيل» وفقدان المعنى، ويطرح الاستيطان في المدينة المختلطة بديلاً عنه. وعلى نحو متناقض، تصاعد هذا النقد واحتدّ ليس فقط حيال تعزُّز المستوطنات وإنما حيال إخلائها أيضاً. فقد اعتُبر «الانفصال» عن قطاع غزة في الخطاب الداخلي بمثابة إخفاق في تجنيد المجتمع الإسرائيلي حول فكرة أرض إسرائيل الكاملة وقاد، بعد ذلك بسنتين، إلى المهمة الجديدة ـ الاستيطان في يافا. يسعى المستوطنون إلى تعزيز الوجود اليهودي في المناطق المختلطة، تعزيز الحوكمة والسيادة وترسيخ هوية المدينة اليهودية. وكما أوضح مؤسس النواة التوراتية، الحاخام يوفال ألبرط:

نحن في يافا من أجل تعزيز الهوية اليهودية وترسيخها بين سكانها. لقد حصل التغيير عندي في أعقاب تجربة الطرد من غوش قطيف. عندها أدركنا أن المعركة الحقيقية هي على شعب إسرائيل وقررنا أن تتحرك عائلتنا للعمل بهذا الشأن وفي هذا الاتجاه.

يجسد استيطان النواة التوراتية في يافا اتساع المشروع الإقليمي ويحدد أهدافاً جديدة. بعد تعزُّز المستوطنات، أصبحت المدن المختلطة هي المناطق الحدودية الداخلية الجديدة. وهي تشكل في نظر أعضاء النواة التوراتية حلبة صراع لم يُحسم بعد حول الطابع، والتواجد اليهودي، والسيادة والحوكمة، التي تحتّم «التعزيز» بواسطة المستوطنين الأيديولوجيين. ومع ذلك، يريد المستوطنون أن يكونوا جزءاً من المشهد المحلي «التل أبيبيّ»، أيضاً، على غرار المستطبِقين الليبراليين.

الجمهور العام في البلاد لا يعرف عقيدة الحاخام كوك، لا يعرف الإجابة على السؤال لماذا نحن نصارع على أرض إسرائيل أصلاً. قررنا الانضمام إلى النواة التوراتية، التي عرضوا عليّ قيادتها في مدينة يافا في مرحلة ما... أخذت هذه المهمة على عاتقي.[٣٣]

يوصف الاستيطان في المدينة المختلطة بأنه جزء من المهمة العامة المتمثلة في تهويد المكان، سعياً إلى تعزيز السيادة في مختلف مناطق دولة إسرائيل. وفق هذا المنظور، ينقل جيل مؤسسي المستوطنات إلى الجيل الشاب مهمة/ رسالة الاستيطان، وهذه المرة في الضواحي البلدية، بحسب وصف نوعام، الحاخام في تحضيرية «أرز لبنان» الذي يقيم في مستوطنة في منطقة السامرة (شمال الضفة الغربية):

حين كان ابني في السادسة عشرة من عمره قال لي: «أنتم يا أبي أقمتم المستوطنات، كانت لديكم عقيدة، وهج في العينين، ركضتم على التلال وبنيتم شيئاً ما. أما نحن، فلا مهمة لدينا، لا وهج، فلتحدد لنا يا أبي مهمتنا القادمة، لي ولرفاقي كي نقلب العالم رأساً على عقب».... نحن مجتمع مثاليّ، نبحث عن عيش ما... بعد الانفصال نشأت فكرة الاستيطان في القلوب... أدركنا أننا هناك، في الأعلى... نحن انفصلنا حقاً، لكن لم يكن لدينا خيار آخر. وها قد انتهت المهمة الآن، إذ ليس ثمة من يمكن إقناعه بالمستوطنات. المهمة القادمة هي الحفاظ على الهوية اليهودية، لأن دولة إسرائيل تفقد هويتها اليهودية، هذا هو الصراع الحقيقي... لدينا مسؤولية تجاه شعب إسرائيل بأسره... أتيت إلى هنا لأن غالبية شعب إسرائيل موجودة هنا.

يعرض المستوطنون المهمة القومية باعتبارها ذات أهمية زائدة في المدينة المختلطة التي تراجع فيها المشروع القومي وضعف على مر السنوات على الرغم من كون المدينة حيزاً غير مختَلَف عليه (على عكس مسألة الحدود الدولية في المستوطنات). وكما أوضحت هودَياه، عضو النواة التوراتية:

قبل وصولنا، هجر مدينة يافا عددٌ كبير من اليهود. هروب مجنون... والعرب كانوا يشترون. تمر يافا بسيرورات جيدة جداً منذ وصلنا نحن إليها وها هي تغير وجهها. عرب كثيرون يغادرون... هذا مهمّ جداً. لو أصبحت المدينة عربية لكان الأمر صعباً جداً على الصعيد القومي، كأنما تخلينا عن جزء من الدولة. إنها يافا، قلب البلاد. ما الذي توصلتم إليه؟ لمن سلمتم بالضبط؟... هذه ليست مستوطنات... بإمكان العرب العيش هنا، لكنّ يافا ليست لهم. الحمد لله، يافا تتهوّد بحق وحقيق.

يجسد استيطان النواة التوراتية في يافا اتساع المشروع الإقليمي ويحدد أهدافاً جديدة. بعد تعزُّز المستوطنات، أصبحت المدن المختلطة هي المناطق الحدودية الداخلية الجديدة. وهي تشكل في نظر أعضاء النواة التوراتية حلبة صراع لم يُحسم بعد حول الطابع، والتواجد اليهودي، والسيادة والحوكمة، التي تحتّم «التعزيز» بواسطة المستوطنين الأيديولوجيين. ومع ذلك، يريد المستوطنون أن يكونوا جزءاً من المشهد المحلي «التل أبيبيّ»، أيضاً، على غرار المستطبِقين الليبراليين. في ما تقوله هودَياه، ثمة طمس/ شطب للخط الفاصل بين المستطبِق الليبرالي والمستطبق المتعصب قومياً:

من المضحك دائماً أنهم يسموننا «مستوطنين». متى سأحظى باللقب السامي الموعود «تل أبيبية»؟ [تضحك] في الواقع أنا أسكن هنا في تل أبيب! أن يروا زوجين حضرا من المستوطنة وأتيا إلى يافا هو أمر ـ من وجهة نظرهم ـ يمنح الناس الكثير من الأمل، لأن يافا كانت في حالة فقدان الهوية وضياعها. شيء ما عربي تكاثر هنا، ولذا يثير الكثير من الأمل أن يأتي إلى هنا يهود لا يخافون، وهو ما أعتبره أمراً مدهشاً، لكنني لم أفعل أي شيء

لم يكن الانتقال من الحياة في المستوطنات إلى المدينة المختلطة ـ في نظرهم ـ عملاً قومياً ودينياً فقط، بل عمل اجتماعي أيضاً يتمثل في مغادرة «البرج العاجي» والحياة الانعزالية في مجتمع المستوطنات المتجانس من أجل «الارتباط مع شعب إسرائيل» المتواجد في المناطق المختلطة. يعزز الاستيطان في المدن المختلطة، وفقاً لخطاب المستوطنين، الشرائح السكانية المستضعفة من خلال توفير الخدمات وتقديم الصدقات، كما يعزز النظام الاجتماعي والحوكمة في المناطق التي تُعتبَر مرتعاً للجريمة والأخلاق الفاسدة.

من أجله، مجرد أنني أتيت وهذا كل شيء.... مضحك هذا اللقب. نحن هنا منذ ١١ سنة! لماذا لا يمكن اعتباري «تل أبيبية» مثل أي واحدة تتجول هنا؟؟

تواصل هودَياه وتروي إن المكان قد درّ عليهم، إلى جانب ضمانه القيم الأيديولوجية، أرباحاً اقتصادية في أعقاب ارتفاع قيمة العقارات: «أتينا إلى هنا لأن زوجي عثر هنا على مكان عمل واجتذبتنا فكرة النواة التوراتية... وقفزت العقارات هنا أضعافاً من حيث قيمتها... حين وصلت النواة إلى هنا من تمتع بالذكاء والرؤية البعيدة اشترى شقة سكنية، ونحن نتحدث عن عدد قليل من العائلات فقط، لكن خلال خمس سنوات تضاعف السعر أربع أضعاف وأكثر».

المشروع الديني: «إحياء القفر الروحاني»

يشكل تعزيز القيم الدينية ـ اليهودية في المدينة المختلطة وإعادة الدين إلى مدن وسط البلاد، في نظر النواة التوراتية وأعضائها، مهمة قومية أيضاً، «صهيونية جديدة»، ترفض الفصل بين الدين والدولة. وكما أشار رئيس المدرسة الدينية (ييشيفاه)، إلياهو مالي:

> المدينة فارغة من المضمون اليهودي... ثمة هنا مشكلة روحانية متفاقمة ودورنا هو إعادة إحياء التوراة والصلاة. [هذا جزء من] خطوة عامة هدفها إعادة الروح اليهودية إلى مدن وسط البلاد... ينبغي أن يكون المشروع الجديد للحركة الصهيونية، الصهيونية الروحانية.

يوضح أعضاء النواة التوراتية أنه عندما تتعزز الهوية اليهودية بين السكان اليهود، فسوف تتعزز هويتهم القومية أيضاً. وكما أوضح يونتان، أحد مؤسسي النواة:

> أنا أومن بالدوائر: تعزيز الإنسان الفرد، تعزيز العائلية، تعزيز المجتمع والانتماء إليه، تعزيز الهوية اليهودية، ثم بإمكاننا صنع السلام... إذا حاولتَ صنع السلام انطلاقاً من تربية طمس الهويات، فلن يقود هذا سوى إلى الفوضى، لأن لديك غموضاً في داخلك أنت... الأولاد اليهود أقل تعلّماً وأقل معرفة بهويتهم اليهودية بسبب درجة الحذر العالية جداً التي تؤدي في النهاية إلى الاكتفاء بالحد الأدنى من القواسم المشتركة. ثمة بين الجمهور الواسع رغبة عارمة في التعلم، من جهة، لكن ثمة جهل مريب من الجهة الثانية. في جهاز التعليم الرسمي هنالك خوف وتخوف من التدين والعودة إلى الدين.

يوجه أعضاء النواة التوراتية النقد لجهاز التعليم الرسمي الذي يروج مضامين تعليمية مشتركة للعرب واليهود، وهو ما يصفونه بـ «القاسم المشترك المتدني» على حساب الهوية الفردية وتعلُّم المضامين الدينية. وتوجَّه سهام النقد أيضاً إلى واضعي السياسات والنشطاء في المدينة الذين يروجون للتعددية الثقافية والهوية المشتركة بين العرب واليهود، وهو ما يعتبره هؤلاء «طمساً للهويات». توضح موران، الناشطة في جمعية «نضيء يافا»:

> أنا أريد بناء هوية مشتركة، لكن ليس كتلك التي تمحوني وتمحوه. هنالك مكان لتقاليد كل شخص. لا ينبغي التلبك ولا الخوف. إذا كنت أقول إنني لا أريد لإبني أن يتزوج من عربية فهذا جيد جداً... أنا آتي وأقيم هنا ضجة على كون هوية يافا متعددة الثقافات... أنا أحتقر هذا، أساساً، لأنه كذب. لأنني إذا ما أردتُ أي شيء له علاقة بالهوية الدينية فسيكون الأمر صعباً بالنسبة لهم... أين التعددية الثقافية هنا إذا لم يكن لي مكان، إذا كان لديكم خوف هستيري من كل ما يتصل بالدين، أو بالهوية، أو بالتقاليد؟ هذا ليس جدّياً ولا حقيقياً.

ترى موران أن يافا قد تحولت، نتيجةً للتعددية الثقافية المدينية والتربية العلمانية ـ الرسمية، إلى مساحة من «القفر الروحاني» تجعل من الصعب المحافظة على

نمـط حيـاة دينـيّ. ينتقـد أعضـاء النـواة التوراتيـة، بـين أمور أخـرى، ظاهـرة الاختـلاط في أعقـاب حـالات الـزواج بـين يهـود وعـرب وإهمـال الكُنـس وقلـة المصلـين فيهـا. ويـرى أعضـاء النـواة التوراتيـة إن مهمتهـم تتركـز في تقريـب الديـن مـن السـكان المحافظـين والعلمانيـين في المدينـة الذيـن يصفونهـم بأنهـم «متعطشـون» لهـذه المضامـين.

المشروع الاجتماعي: «رائع أنكم أتيتم، اجلِبوا المزيد»

لـم يكـن الانتقـال مـن الحيـاة في المسـتوطنات إلى المدينـة المختلطـة ـ في نظرهـم ـ عمـلاً قوميـاً ودينيـاً فقـط، بـل عمـل اجتماعـي أيضـاً يتمثـل في مغـادرة «البـرج العاجـي» والحيـاة الانعزاليـة في مجتمـع المسـتوطنات المتجانـس مـن أجـل «الارتبـاط مـع شـعب إسرائيـل» المتواجـد في المناطـق المختلطـة. يعـزز الاسـتيطان في المـدن المختلطـة، وفقـاً لخطـاب المسـتوطنين، الشرائـح السـكانية المسـتضعفة مـن خـلال توفـير الخدمـات وتقديـم الصدقـات، كمـا يعـزز النظـام الاجتماعـي والحوكمـة في المناطـق التـي تُعتـبَر مرتعـاً للجريمـة والأخـلاق الفاسـدة. يوضـح حجـاي، عضـو النـواة التوراتيـة، إنـه مقابـل الحيـاة المترفـة والبرجوازيـة في المسـتوطنات، فـإن الاسـتيطان في يافـا هـو فعـل تضحيـة ذو معنـى اجتماعـي:

حـين أتـى الحاخـام رافي بيرتـس إلينـا للمـرة الثامنـة محـاولاً إقناعنـا بالانتقـال إلى غـوش قطيـف، قـال: «هـل تريـدون الانضمـام إلى الكومانـدو («سـييرت» ـ اسـم يُطلـق عـلى وحـدات الكومانـدو/ النخبـة في الجيـش أو الشرطـة)، أن تكونـوا في صـدارة العمـل؟ تعالـوا إلى غـوش قطيـف، إذن»... اليـوم يجـري الحديـث في المسـتوطنات عـن التبرجـز... عـن الشـقق السـكنية وهنالـك قائمـة انتظـار في مختلـف المسـتوطنات... بعـض أصدقائـي بـدأوا يلتقطـون صـوراً للحدائـق في منازلهـم، مـع زاويـة للـشيّ... أنـا سـعيد بأننـي لسـت هنـاك... هنـا يوجـد أشـخاص يبحثـون عـن المرحلـة التاليـة... الحاخـام مـالي جـاء إلى بيـت إيـل مـرة واحـدة وقـال «الآن ينبغـي أن تقـدم بيـت إيـل الدعـم ليافـا... يجـب أن ينتقـل عُـشر مـن سـكان بيـت إيـل إلى يافـا». كنـا نريـد مكانـاً نكـون فيـه أكثـر أهميـةً... ألا أكـون منعـزلاً في فقاعتـي... ألا يكـون كل فـرد منعـزلاً مـع نفسـه، بـل أن يكـون المـكان ذا معنـى، أن تكـون فيـه مسـاهمة لخدمـة شـعب إسرائيـل... هنـاك مـا يسـمى الأماكـن الاعتياديـة وهنـاك الكومانـدو ـ النويـات التوراتيـة... أتينـا إلى هـذا العالـم كـي نُعطـي مـن أنفسـنا، هـذا مـا نؤمـن بـه.

تتحـدث تمـار، عضـو النـواة التوراتيـة، عـن اللقـاء بـين الثقافـات والاندمـاج الاجتماعـي بمصطلحـات التنـوع المدينـي، والتعدديـة والحـب المجانـي:

في الحالـة المثاليـة، كنـت أرغـب في السـكن في مـكان ليـس للمتدينـين فقـط... ألتقـي فيـه بـكل شرائح شـعب إسرائيـل، لا أن أكـون في بـرج عاجـي مـا الجميـع فيـه متشـابهون، الطبعـة نفسـها. أن أكـون في مـكان مختلـط ويافـا هـي كل شـعب إسرائيـل حقـاً. مـن المحافظـين اليهـود، والعـرب، والمسـيحيين، والمهاجريـن مـن بلغاريـا، والمهاجريـن مـن روسـيا، والأفارقـة، والأثيوبيـين... أعتقـد بـأن معظـم الذيـن يأتـون إلى يافـا يريـدون أن يكونـوا مـع كل شـعب إسرائيـل، هـذا التنـوع يهمّهـم جـداً، أن يكـون تواصـل مـع السـكان... أن تكـون علاقـات، دون أن يخـاف شـخص مـن الآخـر، الكثـير مـن العمـل المشـترك، مـع الحـوار والتفكـير... التواصـل بـين النـاس والتعـارف مهمّـان جـداً كـي لا يتـم إلصـاق التصنيفـات الجاهـزة، مـن أجـل تطـور شـعب إسرائيـل... كـي لا تحـدث الانقسـامات وتنتـشر الكراهيـة.

عـلى غـرار المسـتطبِقين الليبراليـين في يافـا، كذلـك المسـتطبق المتعصـب قوميـاً أيضـاً مدفـوع بالبحـث عـن حيـاة في مجتمـع متنـوع دينيـاً، واجتماعيـاً وثقافيـاً. لكنـه يريـد، في الوقـت نفسـه، التأثـير عـلى السـكان المحليـين والمحافظـة عـلى إطـار داخـل المجتمـع وانتمـاء إلى مجموعـة المسـاوين لـه، مـن خـلال إنشـاء مؤسسـات تعليميـة وثقافيـة منفصلـة تتيـح «التنـوع الآمـن». إلى جانـب تحقيـق الاندمـاج الاجتماعـي، يوضـح إيتمـار أن اسـتيطانهم في يافـا يعـزز السـكان القدامـى المسـتضعَفين:

يلـزم الحاخـام جميـع التلاميـذ في المدرسـة الدينيـة بالتطـوع بضـع سـاعات كل أسـبوع. تطـوع بعضهـم في ترميـم بيـوت بعـض المسـنين، بعـض آخـر في مرافقـة أبنـاء شـبيبة مـن الطائفـة الأثيوبيـة، وبعـض ثالـث في توزيـع سـلال المـواد الغذائيـة والألبسـة.... عمـل اجتماعـي خفيـف. ثمـة في شـعب إسرائيـل الكثـير مـن المشـاكل والمصائـب وحـين تبـدأ بتقديـم المسـاعدة فأنـت تصبـح، بشـكل طبيعـي، عامـل رفاهيـة للبيئـة المحيطـة. لأن عوامـل الرفـاه محـدودة جـداً، بميزانياتهـا وبقدراتها، وفي اللحظـة التـي يتجـرأ أحـد مـا يبـدأ النـاس البسـطاء بالتوجـه إليـه وكأنـه سـلطة سـتقدم لهـم المسـاعدة... [الفكـرة هـي] أن نأتـي إلى مناطـق فقـيرة مـن الناحيـة الاقتصاديـة ـ الاجتماعيـة ونقـوم بتطويـر المـكان...

الأشخاص الذين يسيرون في طريق العمل والبذل والتطوع لديهم شعور بأنهم يحملون رسالة.

يجري الحديث عن دعم السكان الفقراء في يافا وتعزيزهم بمصطلحات التنمية الثقافية والقدوة الشخصية. «حين أتينا إلى يافا كان السكان الفقراء من المحافظين، والمسنين، بصورة أساسية. عندما جئنا إلى هنا كنا نسير في الشارع فيقولون لنا «رائع أنكم أتيتم، اجلِبوا المزيد»... هذه كانت ردود الفعل». وهذا ما تقوله موران، أيضاً:

أنا أومن بأنه في اللحظة التي يلتقي فيها الأولاد، والناس، بي أو بأمثالي، يحصل التأثير. أنا حاضرة؟ ثمة لهذا معنى بالتأكيد. حتى لو انتهى الأمر بأن أقدم لهم مساعدة تعليمية، بأن أُحضر لهم سلة غذاء من البيت. مدهش. حتى لو فتحت أمامهم عالماً آخر... الناس هنا في يافا يكبرون وهم يخوضون صراع بقاء. إنك ترى كيف تُنهي يومك بينما طموحك في الحياة هو أن تكون أمين صندوق في متجر أو بائع مخدرات... مجرد التقائهم بأشخاص يذهبون إلى الجامعات، فهذا يعني أن هنالك عالَماً وحياة، هنالك مكاناً آخر، هنالك خطاباً آخر، هنالك لغة. بالنسبة لي، هذه قيمة رهيبة.

إلى جانب كشف السكان المحليين على ثقافة أخرى، ينظر أعضاء النواة التوراتية إلى استيطانهم في المدينة بكونه محفزاً على حفظ النظام الاجتماعي والحوكمة في المكان الذي يُعتبر مرتعاً للجريمة. توضح هودَياه:

مجرد وجودنا وعيشنا هنا هو، في حد ذاته، النواة التوراتية. لست ملزمةً بالقيام بأي عمل... العيش هنا فقط، بكل بساطة... في كل الأماكن التي سكنّا فيها كنا لطفاء مع الجيران وكنا نحمل معنى ما بالنسبة لهم... جئنا بنغم جديد... من الواضح لي أننا أحدثنا تغييرات كبيرة ولامسنا العديد من الدوائر، لمجرد أننا نعيش هنا في يافا... أذكر أننا حين وصلنا إلى هنا للمرة الأولى رأينا البريق في أعين الناس، «لماذا أتيتم؟ ألا تخافون؟». قلت لهم: «لا، مِمَّ يجب أن أخاف؟»... كان لذلك أثر إيجابي على اليهود الذين يعيشون هنا، وهو ما لم ينسوه.

شدد خطاب المستوطنين على أهمية تعزيز الأمن الشخصي للسكان اليهود القدامى في وجه أعمال الإجرام التي يمارسها سكان عرب، كما أوضح حجاي:

لم نأت لطرد العرب أو غير ذلك مما يفكرون فيه عنّا هنا. نحن نأتي لتعزيز اليهود... كي يتمكنوا من التجول هنا في الشوارع... أنت لا تستطيع التجول هنا لأن العرب يفعلون ما يحلو لهم، حتى في الشوارع أيضاً، دراجات كهربائية وتراكتورونات... ثمة هنا مسألة انعدام حوكمة وغياب سلطة القانون الذي لا يسري هنا... لأنهم يخافون من التعامل معهم..

٢. علاقات بين المستوطنين والسكان

علاقات مع السكان العرب: «من يريد العيش تحت، فمر حباً »

يتحدث أعضاء النواة التوراتية عن علاقات صراعيّة مع السكان العرب. وهم يميزون بين السكان العرب الذين يصفونهم بأنهم معياريون وأبناء الشبيبة الذين يصفونهم بأنهم جنائيون خارجون على القانون يمارسون تخريب الممتلكات، بعضهم مدفوع بالتعصب القومي وباللاسامية. توجد مع السكان العرب من المجموعة الأولى علاقات جيرة حسنة تشمل المساعدة، والحوار والتعاون لتحقيق أهداف مشتركة مقابل البلدية. لا بل، تحدث بعض أعضاء النواة عن تغيير في نظرتهم إلى المجتمع العربي، من النظرة الاستيطانية تجاه العرب كـ «أعداء» و«مخربين» إلى نظرة أكثر تعقيداً تميز بين «العرب الجيدين» و«الإرهابيين» وبين مواطني إسرائيل والفلسطينيين وراء الخط الأخضر. وعلى نحو معاكس، جعل الاستيطان في يافا بعض هؤلاء أقل تعصباً قومياً، كما يقول إيتمار:

أعتقد، بصورة مبدئية، أن كل من انتقل إلى يافا أصبح أكثر اعتدالاً من الناحية السياسية وأصبح أكثر يساريةً، ولو قليلاً... أكثر واقعيةً بقليل تجاه الأمور المختلفة ويبحث عن حلول عينية... لأنهم يجب أن يكونوا جيراناً ولأن ثمة كثيرين من العرب الجيدين. يجبرنا واقع الحياة المشتركة والعمل المشترك على التعاون... حين يريد الحاخام مالي، على سبيل المثال، تحقيق أمور متصلة بالدين من البلدية، فهو يفضل التعاون مع شيخ الحركة الإسلامية/ الجناح الشمالي لتعزيز موقفه أمام البلدية... قد يكون هذا تعاوناً غائياً، لكن هذا لا يهمّ. هذه الأمور تحدث بالفعل... هنالك علاقات جيرة حسنة... ليس العرب الفلسطينيون مثل عرب يافا، إطلاقاً. إنهم بعيدون (مختلفون) عن بعضهم البعض بُعد الأرض عن السماء... يعيش أولئك الذين بقوا في يافا في مستوى اقتصادي ـ اجتماعي عالٍ جداً. ثمة لهذا معنى

اقتصادي أيضاً. ثم من ناحية تجربة المعايش لهذا الواقع، نرى العربي إنساناً، يتحدث بطلاقة، مثقفاً، لطيفاً ويطرح هنا شكاوى ومطالب عادلة والجميع راضون عن هذا العرض.

على نحو مماثل، تشرح موران أيضاً عن أثر الحياة في المدينة المختلطة على نظرة أعضاء النواة التوراتية تجاه المجتمع العربي، وهي النظرة التي تدمج بين التسيُّد والجيرة:

يعيش أعضاء النواة حياة مركّبة... عندما تسكن في بلدة وراء الجدار وهنالك فصل واضح بينهم وبينك، فمن السهل أن تكره العرب. أما حين تسكن معهم في البناية نفسها، فأنت ملزم بفتح عقلك والتفكير بصورة أخرى. لا يمكنك البقاء في المكان نفسه... أنا ما زلتُ يمينية، لكن مع ذلك أنا لا أتفق بتاتاً مع أفكار معينة لدى الجمهور الذي أنتمي إليه... لأن العرب في نظره هم مخربون ليُمحَ اسمُهُم.. بالمناسبة، أنا أقول هذا، ليمح اسمهم، بصورة تلقائية... تخرج من فمي بصورة أوتوماتيكية تماماً. هذا ليس تناقضاً، لكن جيراني طيبون، نسكن الباب قبالة الباب، وهم عرب، جيدون، وأنا لا أقصدهم هم حين أقول هذا... من يكون مستعداً للعيش تحت الحكم اليهودي فله حقوق مثلي وهو، بالنسبة لي، مساوٍ لي.

هودَياه، التي كانت تسكن في كريات أربع في طفولتها، تحدثت عن التغيير الذي حصل لديها في ما يتعلق بنظرتها تجاه المجتمع العربي في أعقاب الاستيطان في يافا. يمكن ملاحظة نقد خفي في كلامها موجه إلى مشروع الاستيطان الذي وضع اليهود والعرب مقابل بعضهم البعض كأعداء، بينما تتيح الحياة في المدينة المختلطة إمكانيات اللقاء والتعارف، حتى لو كانت محدودة وبتحفظ، من خلال تواجدهم معاً في الحيز العام:

عندما وصلتُ إلى يافا كان الأمر بمثابة صدمة لي. العربي في نظري هو عدوّ. نشأتُ في بلدة مَن يدخل إليها فإنما جاء ليقتلني... ثم تجولتُ هنا في الشوارع... نساء يعتمرن الكوفيات، أصوات في أيام الجمعة تنادي «بندورة بشيكل، بندورة بشيكل»، فتساءلتُ: أين أنا؟ أفي غزّة؟ وعندئذ تعلمتُ إجراء هذا الفصل... يوجد هنا عربٌ متعصبون قومياً لكن هنالك أيضاً عرب يريدون العيش معك... وهذه سيرورة بالنسبة لي كمستوطِنة... تعلمتُ الفصل. أن تجلس في الحديقة العامة على مقعد بجانب امرأة تغطي كل جسدها، هذا ضرب من الوهم. كنت أراهم من خلال الباص المحصَّن ضد الرصاص عندما كنا نسافر إلى كريات أربع... لكنها تريد العيش مثلي، حقاً. لدي جارة أنجبنا معاً، هي وأنا، مرتين... نتحدث عن الحياة، امرأة بكل معنى الكلمة، هذا مدهش. وهذه سيرورة... أنا لستُ في هذا الصراع هنا... السنوات قد سحقت هنا هذا الفصل بين «يهودي» وعربي» وسحقت كريات أربع... إنه صندوق باندورا ويجب فتحه. السيرورة في يافا هي صحية، في حد ذاتها، لأنه طالما ليست لديهم طموحات قومية، فليست لدي ثمة أي مشكلة مع العرب. من يريد العيش تحتي فمرحباً به ويريد العيش هنا بسلام، فليتفضل ويجلس معي... هنالك قواعد شرعية واضحة جداً في ما يتعلق بالعلاقة مع الجار الغريب (غوي) ـ احترمه وشُكّ به، هكذا أقيم علاقاتي مع العرب، ليس أكثر. الفصل واضح جداً جداً.

إلى جانب علاقات الجيرة، التي توصف بأنها جيدة، والرغبة في إنشاء علاقات أخرى مع العرب مقارنة بحياتهم في المستوطنات، لا يزال حديث هودَياه وموران ينطوي على فصل واضح بينهما وبين السكان العرب. وصف هودَياه جارتها العربية، بدهشة، بأنها «امرأة بكل معنى الكلمة» يثبت تماماً الأمر الذي أرادت نفيه ودحضه: الهوية العرقية ـ القومية هي المتوقعة، المؤكدة، التي تغطي على أي هوية أخرى، سواء كانت جندرية أو علاقات جيرة. وإضافة إلى هذا، فإن هذه العلاقات «مشروطة» بأن يقبل السكان العرب العيش كمجموعة خاضعة. تُعرَض هذه العلاقات وكأنها حتمية يفرضها الواقع الذي لا يمكن في إطاره إلغاء مواطَنة عرب يافا، كما يوضح إيتمار:

المستوطنون الذين قدِموا إلى يافا ليسوا منزعجين كثيراً من العرب. لقد أتوا كي يلتقوا بالعلمانيين. لم يأتوا لإبعاد العرب، لأنه ليس ثمة مكان يُبعَدون إليه. لديه هوية زرقاء اللون. لا بلاد أخرى لديه، إنه يقيم هنا، ما الذي يمكن أن نفعله به؟ انقله إلى الرملة، إذاً. وماذا بعد؟ كأنما، ومعذرة على الكلام الفظ ـ مثل غرض ما لديك في المنزل وليس لديك مكان تضعه فيه. سيسقط حتماً. ليس ثمة ما يمكن القيام به. فما هي نواياهم، إذاً؟ إنهم يريدون التأثير على الخطاب العام في المجتمع الإسرائيلي وتعزيز قيم يؤمنون بها.

يُصوَّر المجتمع العربي وكأنه لا يستحق أن تكون لديه تطلعات قومية ويتم تسليعه ليكون عبئاً على المجتمع الإسرائيلي. لذلك، يوضح يونتان، تبقى علاقات الجيرة هذه على مستوى شخصي/ فردي فقط وليس على مستوى أهدافهم كمجموعة: «على المستوى الشخصي الفردي، هنالك علاقات جيرة حسنة. على مستوى الجمعية ـ نشاطنا يمثل الهوية اليهودية، لا يستهدف تحقيق التعايش وأحاديث السلام». مقابل علاقات الجيرة الحسنة مع «العرب المعياريين»، يتحدث أعضاء النواة التوراتية عن علاقات متوترة مع من يعتبرونهم سكاناً خارجين على القانون. وكما أشارت هودَياه:

هناك الكثير من المضايَقات... هنالك توتر مع الشباب الذين يمكنهم أن يضايقوا ويزعجوا، بإلقاء ملاحظة هنا أو شتيمة هناك... خارجون على القانون... ليس من اللبق القول، لكن كما أن هنالك عرصات يهوداً، فهنالك عرصات عرب أيضاً، يريدون الفوضى، الحركة، يمكنهم أن يضايقوا كبار السن الذين يتجولون هنا... ربما كنت أنا الذي أثيرهم لأنني مستوطِنة تغطي رأسها ومع كثير من الأولاد... لكن كما قالت لي عربية هنا «نحن أيضاً لا نعرف ما نفعل معهم». عندما يأتون إلى الحديقة العامة تقول لي: «يلا، هيا بنا نغادر قبل أن يقيموا الفوضى هنا». هي عربية أيضاً... لا يمكنك أن تعرف ما خلفية ذلك كله ودوافعه ـ هل هو الميل إلى التخريب فقط، هل هو التعصب القومي أم كلاهما معاً؟

يقول أعضاء النواة التوراتية إنهم وقعوا خلال السنوات الأولى من استيطانهم في المدينة، بشكل خاص، ضحية للعنف بسبب ملامحهم الدينية واعتبارهم «مُهوِّدين للمدينة». هكذا يروون، على سبيل المثال، إن قنبلة صوتية قد ألقيت في ساحة المدرسة الدينية (بيشيفاه) وإن مظاهرات قد نُظمت قرب المدرسة الدينية وقرب مساكن التلاميذ. ومع ذلك، أكد هؤلاء خلال المقابلات التي أجريت معهم في الأشهر التي سبقت أحداث أيار ٢٠٢١ إن التوتر الذي ساد بينهم وبين السكان العرب خلال السنوات الأولى من استيطانهم قد خفت وهدأ. هكذا يصف الحاخام نوعام، مثلاً، الوضع الذي كان سائداً قبل أشهر قليلة من أحداث أيار ٢٠٢١:

لدى انتقال المدرسة الدينية إلى هنا حصلت أعمال شغب أيضاً، تسببوا بمشاكل للمدرسة الدينية... لكن الوضع قد هدأ اليوم، فقد رأوا أننا أشخاص لطفاء ولا شيء هنالك اليوم، وحين أقول لا شيء فمعنى ذلك لا شيء تماماً ـ صِفر، صِفر. أحياناً يمرّ ولد ويصرخ نحوي بشيء ما... لكن هذا كل ما في الأمر... مؤخراً بدأت هنا مظاهرات وأحرق العرب عربات النفايات. أنا أدرك أن ثمة توتراً تحت السطح وقد تكون صحوة ما... هل نثق بهم كمخلصين للدولة على المستوى القومي؟؟ كلا بالتأكيد، وأنا أفهمه جيداً... ثمة لديه مشاعره القومية الخاصة به وهو يريد أن تكون هنا دولة عربية. حين تصل الأمور حد الصدام، سنكون هناك ١٠٠٪... لا نهاب وليست لدينا أي مشكلة، نحن لا نخطط، لقد أبقينا كل الذخيرة والدبابات تحت البلاط. توجد دولة وتوجد شرطة وإذا ما وقعت مواجهات، فسوف نختار الجانب اليهودي.

ظهر تفاقم العلاقات بين أعضاء النواة التوراتية وسكان المدينة العرب بكامل حدته في حادثة الاعتداء على رئيس المدرسة الدينية إلياهو مالي ومدير المدرسة الدينية موشيه شندوفيتش يوم ١٨ نيسان ٢٠٢١. فقد كشف الاعتداء وأحداث العنف بين الجماعتين والعنف البوليسي الذي أعقبها واقع أن علاقات الجوار تقف على كف عفريت.

خلاصات: صندوق الباندورا في الاستطباق المبني على التعصب القومي

شهدت مدينة يافا على مر السنوات موجات عدة من الاستطباق رافقها لاعبون اجتماعيون أعادوا اكتشاف المدينة من جديد: ريادِيون بلديون وفنانون، مبادرون وأصحاب رؤوس أموال، برجوازيون بوهيميون (bobo)، مُترَفون، وطلاب جامعيون، نشطاء يساريون وكومونات تعاونية (مثل صداقة ـ رعوت). وخلال العقد الأخير أتى إلى المدينة المختلطة لاعب سياسي جديد ـ المُستَطبِق المتعصب قومياً ـ رسخ قوته وعززها تحت السطح حتى أحداث أيار ٢٠٢١. هذا اللاعب هو نتاج سيرورة متدحرجة وسعت الحركة الاستيطانية خلالها المشروع الاستعماري من المناطق (الفلسطينية) إلى المناطق الحدودية الداخلية في وسط البلاد سعياً منها إلى «الاستيطان في القلوب».

شكّلت موضعة يافا كهامش لمركز البلاد وسيرورات الاستطباق أساساً لتحقيق أهداف عرقية ـ قومية بغلاف نيو ـ ليبرالي من التعددية الدينية والتعددية الثقافية. فقد أطلق المستوطنون مبادرات ومشاريع تحت مسميات رعوية مثل «بيت الحب والصلاة على البحر»، «ملامسة الريح»، «نضيء يافا» و«الهبوط إلى أعلى»، التي جمعت

بين خطاب التنوع الثقافي والمشاركة الاجتماعية والخطاب القومي المتعصب للهوية اليهودية، والملكية، والدين والتعليم. لكن بينما جاء المستوطنون مزودين بأجندة واضحة، أدى اللقاء مع المدينة المختلطة في واقع نيو ليبرالي إلى عدم تركيزهم أنماط عملهم واستيطانهم، وهو ما تحول فيما بعد إلى استراتيجية فعالة وجيدة التجهيز.

أثارت المجمعات السكنية المنفصلة التي روج لها المستوطنون خلال السنوات الأولى من استيطانهم موجة احتجاج محلية ومعارك قضائية متواصلة. يُضاف إلى ذلك أزمة السكن وارتفاع أسعار العقارات في يافا، مما جعل من الصعب شراء مساكن بصورة منظمة في الجوار. زد على ذلك أن مواصفات المستوطنين، وتفضيلاتهم وقدراتهم الاستهلاكية المختلفة قد شجعت اللامركزية في الحيز البلدي. وقد برز النمط اللامركزي بصورة واضحة في طابع نشاط أعضاء النواة التوراتية أيضاً: في تأسيس جمعيات وهيئات مختلفة، ترأسها عدد من النشطاء وليس شخصية مركزية واحدة. وسواء أكان الأمر استراتيجية مخططة ومعتمدة أم سلوكاً اضطرارياً، فقد منحهم توزيع المستوطنين في المنطقة السيطرة على عشرات المراكز والمؤسسات البلدية (كُنس، مراكز جماهيرية وغيرها)، فضلاً عن سهولة الوصول إلى قطاعات أخرى مختلفة في المدينة وقدرة على التأثير الحاسم على العلاقات بين المجموعات السكانية. وقد برزت قوتهم هذه، بشكل خاص، على خلفية عددهم القليل نسبياً.

اكتسب الاستطباق المتعصب قومياً المزيد من القوة ليس بسبب الواقع النيو ليبرالي وانتشاره المكانيّ فحسب، وإنما بسبب التعبئة السياسية والأيديولوجية التي شكلت محركه المركزي، بصورة أساسية. وبكونه كذلك، فقد أثار معارضة محلية، ليست طبقية فقط وإنما عِرقية ـ قومية أيضاً. وقد انفجرت هذه المعارضة بكامل قوتها في ربيع العام ٢٠٢١. في شهر نيسان، بعد حادثة العنف التي جرى الاعتداء خلالها على رؤساء المدرسة الدينية التوراتية، نشر منظمو المظاهرة الاحتجاجية بياناً قالوا فيه: «نحن نتواجد هنا هذا المساء للتعبير عن تضامننا مع سكان يافا الأصليين الذين تم إقصاؤهم إلى الخارج من قبل النويات التوراتية ذات الأيديولوجيا الاستعمارية المعلنة التي تسعى إلى التهويد من جهة، ومن قبل أصحاب رؤوس الأموال من جهة ثانية. هؤلاء يتلقون الدعم المباشر من بلدية تل أبيب، ومن وزارة البناء والإسكان ومن شرطة إسرائيل ويطبقون سياسة شاملة تدفع نحو الحد الأقصى من تهويد المدينة وتحويلها إلى منطقة يملكها العُشر الأعلى الأبيض والمُتخم»[٣٤].

ومؤخراً، عُرض فيلم «شهادات أيار ٢٠٢١» ـ مجموعة من الشهادات أدلى بها سكان فلسطينيون من يافا واللد يوجهون فيها أصابع الاتهام إلى المستوطنين والشرطة. هل كان العنف الذي تفجر بين المجموعتين في يافا في نيسان وأيار ٢٠٢١ نتاج القاعدة البنيوية التي أرستها النواة التوراتية، كما يدعي السكان الفلسطينيون؟ هل كان الوجود الاستيطاني في المدينة المقسمة سيكون مؤثراً إلى هذه الدرجة الحاسمة لولا تاريخ الاستطباق الليبرالي في يافا؟ ما زال من المبكر الجزم بهذا الشأن، إلا أن الوقائع والنتائج التي تراكمت بين أيدينا تشير بصورة واضحة إلى سيرورات مترابطة ومتداخلة بين التجديد الحضري بأبعاده الاقتصادية، والتخطيطية والمؤسساتية، والتطرف الراديكالي السياسي ونوع جديد من التعبئة الاجتماعية. وقد أشرنا في هذه المقالة إلى سيرورة التبلور التاريخي للمزج الهجين بين الاستطباق الاقتصادي والفاعلية الاستعراقية ـ وهو ما أسميناه «استطباق التعصب القومي».

يبيّن هذا البحث أن العنف الذي انفجر في يافا في نيسان وأيار ٢٠٢١ لم ينشأ من العدم ولا من فراغ. يشير التحليل السوسيولوجي إلى قاعدة تترسخ وتتعزز وتشكل تهديداً للنسيج الاجتماعي الدقيق والهش في مدينة يافا. على عكس المستطبقين الليبراليين، ينبع تأثير أعضاء النواة التوراتية الحاسم على الحيز من تاريخ متواصل من التوسع في المدينة يدمج بين التوجهات الاقتصادية والسياسية. وتشير الاحتجاجات الشعبية إلى مفاهيم ومواقف متناقضة بشأن «الحق في المدينة»: فبينما يعتبر السكان العرب النواة التوراتية خصماً خارجياً جاء لمحو وجودهم الجماعي في يافا، يطالب المستوطنون المتدينون ـ القوميون بحق الاستيطان في المدينة التي كان الحاخام كوك الحاخام الرئيس فيها في بدايات القرن العشرين. وقد تناولت هذه المقالة النواة التوراتية بحد ذاتها وعلاقاتها مع المجموعات السكانية المختلفة في يافا. ولا تزال ثمة حاجة إلى المزيد من البحث لدراسة وجهات نظر المجموعات السكانية نفسها ومواقفها حيال النواة التوراتية وتأثيرها على نسيج الحياة في المدينة.

(ترجمها عن العبرية: سليم سلامة)

الهوامش

١ مـن منشـور دعائـي لمـشروع سـكني «لؤلـؤة بيـف»، في مسـاف هـاروح [نـشرة المـزاج]، بتاريـخ ٢٤ كانـون الثانـي ٢٠١٤، ص. ٢٣. أ نظـر/ي الرابـط التـالي: https://en.calameo.com/read/002627047dfb5235044f4

٢ يـرون دورون، «فظيـع: ضرب رئيـس مدرسـة دينيـة في يافـا»، في يسرائيـل هيـوم، ١٨ نيسـان ٢٠٢١. انظـر/ي الرابـط التـالي: https://www.israelhayom.co.il/news/local/article/197260

٣ ايتـي بلومنظـال، «الهجـوم يتعلـق بـالأرض.. وبممتلكاتنـا»، يديعـوت أحرونـوت، ١٩ نيسـان ٢٠٢١. انظـر/ي الرابـط التـالي: https://www.ynet.co.il/news/article/Hk69Sp5UO

٤ اِسْـتِطْبَاق ـ وفـود طبقـات اجتماعيّـة وسـطى وعليـا إلى أحيـاء هامشـيّة وتبديـل طابـع المـكان/ تحسـين أو ترقيـة الأحيـاء (في المـدن) / رفـع المسـتوى الاجتماعـي.

. 5https//:www.facebook.com/rachel.beitarie/videos 10159354578347372/

٦ . عطـيرت كوهَنيـم هـي مدرسـة دينيـة يهوديـة في القـدس القديمـة خـرج منهـا الحاخـام إلياهـو مـالي وحاخامـون آخـرون أنشـأوا النـواة التوراتيـة في يافـا.

٧ حجـاي ميطـر، «عـرب يافـا يحتجـون: عـشرات الشـبان اليهـود اعتـدوا عـلى المصلـين في المسـجد»، ماكـون ريشـون، ٢٠ كانـون الثانـي ٢٠١١. انظـر/ي الرابـط التـالي: https://www.makorrishon.co.il/nrg/online/54/ART2/202/635.html

8 John L. Comaroff and Jean Comaroff, Ethnicity, Inc, Chicago Studies in Practices of Meaning (Chicago: University of Chicago Press, 2009).

٩ شـنهاف، يهـودا، في مصيـدة الخـط الأخـضر، نـص سـياسي يهـودي، (تـل أبيـب: عـام عوفيـد، ٢٠١٠).

١٠ . "الاسـتيطان الشـبابي" هـو حركـة تنشـط منـذ العـام ٢٠١٨ مـن أجـل تسـوية البـؤر الاسـتيطانية وتنظيمهـا بموجـب القانـون الإسرائيـلي. خلافـاً للمسـتوطنات في "يهـودا والسـامرة" (الضفـة الغربيـة) التـي تتمتـع بمكانـة قانونيـة في إسرائيـل، فـإن هـذه البـؤر الاسـتيطانية تُعتـبر غـير قانونيـة.

11 Smith, Neil. (1982). Gentrification and uneven development. Economic Geography 58, 139–55.

12 Ley, David. (1986). Alternative Explanations for Inner-City Gentrification: A Canadian Assessment. Annals of the Association of American Geographers, 76(4), 521–535

13 Zukin, Sharon. "Whose Culture? Whose City?" in: Zukin, S. (ed.). (The Urban Sociology Reader. Routledge, 2012)

14 Bourdieu, Pierre. (1977). Cultural Reproduction and Social Reproduction. In J. Karabel, & A. H. Halsey (Eds.), Power and Ideology in Education, pp. 487–511.

15 Smith, Darren .P., & Phillips, Deborah. A. (2001). Socio-cultural representations of greentrified Pennine rurality. Journal of Rural Studies, 17, 457–469.

16 Coley, J, and Robert M. Adelman. (2021). "Gentrification in the 'City of Good Neighbors': Race, Class, and Neighborhoods in Buffalo." Sociological Inquiry. 91(4):824–848

17 Kaddar, Merav. (2020). Gentrifiers and Attitudes towards Agency: A New Typology. Evidence from Tel Aviv-Jaffa, Israel. Urban Studies, 57, 6: 1243–59.

18 Kent-Stoll, Peter. (2020). The racial and colonial dimensions of gentrification. Sociology Compass, 14(12), 1–17

19 Yiftachel, Oren. (2020). From displacement to displaceability: A southeastern perspective on the new metropolis. City, 24(1–2), 151–165

20 Shmaryahu-Yeshurun, Yael. & Ben-Porat, Guy. (2020). For the Benefit of All? State-led Gentrification in a Contested City. Urban Studies

21 Kaddar, Gentrifiers and Attitudes

٢٢ مونترسـكو، دانئيـل. وفابيـان، روعـي (٢٠٠٣). «القفـص الذهبـي»: الاسـتطباق والعولمـة في مـشروع جبعـات أندروميـدا في يافـا. تيئوريا وبيكـورت، ٢٣، ١٤١- ١٧٨ (بالعبريـة).

٢٣ شـمرياهو يشـورون، ياعيـل (٢٠٢٠). سياسـة اسـتيطان النويـات التوراتيـة في المناطـق الطرفيـة وفي المـدن المختلطـة في إسرائيـل: بـين القوميـة والنيـو ليبراليـة. أطروحـة لنيـل درجـة «دكتـوراة في الفلسـفة»، بـئر السـبع: جامعـة بـن غوريـون في النقـب

٢٤ كوهـين، عـدي، «النـواة الصلبـة: هكـذا تسـاعد جيوبنـا جميعـاً في إذكاء التوتـر في المـدن المختلطـة». في دي ماركـر، ٢ حزيـران ٢٠٢١. انظـر/ي الرابـط التـالي:. https://www.themarker.com/real-estate/.premium-1.9865355

٢٥ دومبروفسـكي، ماتـي (٢٠١٥). مـن أرض إسرائيـل إلى شـعب إسرائيـل؟ النويـات التوراتيـة كمـؤشر عـلى تحـوّل في الصهيونيـة الدينيـة، مـوشي رحيمـي (محـرر)، «عَمَـدوت»، ز، انفصـال وتضامـن، إلقنـا، رحوفـوت: كليـة أوروت يسرائيـل، ٤١-٥٩

٢٦ انظـر/ي مناقصـات عميـدار عـلى الرابـط التـالي: https://apps.land.gov.il/MichrazimSite/#/michraz/20090729

٢٧ انظـر/ي الرابـط التـالي: http://www.yaffo.co.il/article_k.asp?id=٢٤٦

٢٨ انظـر/ي المناقصـة عـلى الرابـط التـالي: https://apps.land.gov.il/MichrazimSite/#/michraz/20090054

٢٩ انظـر/ي الالتمـاس عـلى الرابـط التـالي: https://petitions.org.acri.law/il/pdf/pdf.hit٢٠٠٢ وانظـر/ي الاسـتئناف عـلى الالتمـاس عـلى الرابـط التـالي: https://bit.ly/3c79GaH

٣٠ هرتسـبرغ، يوئيـل، «الجمعيـة مـن أجـل تهويـد يافـا». في موقـع المـكان الأكثـر حـراً في جهنـم، ٣٠ أيلـول ٢٠١٦. انظـر/ي الرابـط التـالي: https://www.ha-makom.co.il/article/yoel-herz-berg-tagger-street

٣١ في مساف هاروح [نشرة المزاج]، مصدر سابق.

32 Yin, Robert. Case Study Research: Design and Methods. Applied Social Research Methods series. (Thousand Oaks, London: Sage Publications, 2006): 25

٣٣ انظـر/ي ناحـوم أفنيئـل، عـلى الرابـط التـالي: http://www.zomet.org.il/_Uploads/1307.pdf

٣٤ أنظـر/ي رابـط الفيـس بـوك التـالي: https://www.facebook.com/rachel.beitarie/videos/10159354578347372، وأيضـاً: https://www.facebook.com/photo?